kitabweb-2013.forumaroc.net

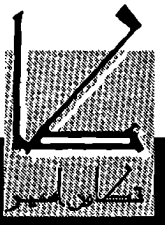

زيارة المولى الحسن الأول لتطوان

فصلة من كتاب

«تاريخ تطوان»

للأستاذ محمد داود

تخريج : حسناء محمد داود

منشورات جمعية تطاون أسمير

تطوان

مارس 1997

زيارة المولى الحسن الأول

لتطوان

فصلة من كتاب «تاريخ تطوان»

للأستاذ محمد داود

تخريج : حسناء محمد داود

﴿ منشورات جمعية تطاون أسمير ﴾

تطوان

مارس 1997

﴿زيارة السلطان مولاي الحسن لتطوان عام 1307.[1]

قال الناصري في الاستقصا[2] ما نصه :

«ثم دخلت سنة ست و ثلاثمائة و ألف، فيها غزا السلطان جبال غمارة، فخرج من حضرة فاس عاشر شوال من السنة المذكورة، فسلك تلك الجبال و دوخها و زار تربة الشيخ الأكبر و الكبريت الأحمر أبي محمد عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه، ثم تقدم إلى مدينة تطاوين، فدخلها يوم الأربعاء ثامن المحرم من السنة التي تليها، أعني سنة سبع و ثلاثمائة و ألف، فأقام بها نحو الخمسة عشر يوماً، و زار صلحاءها، و تطوف في معالمها، و تبارى وجوه أهل تطاوين و كبراؤهم في الإهداء إليه و بذل المجهودات في الاعتناء بحاشيته و جيشه، و أعجب ذلك السلطان، و رأوا منه ما تقرُّ به أعينهم، و أنعم عليهم السلطان بعشرة ءالاف ريال لبناء قنطرة يرتفقون بها في واديهم المحيط بمدينتهم، لكن لم يحصل مقصود من ذلك لعدم إتقان بنائها، فتهدمت في الحال و ضاع ذلك المال، ثم سار السلطان من تطاوين إلى طنجة ثم منها إلى العرائش، ثم عاد إلى فاس».

و تكلم أستاذنا الرهوني في تاريخه على هذه الزيارة (و كان في تاريخها لا يزال طالب علم بتطوان، و قد وصفها وصف مشاهد لها)، و هذا نص كلامه :

«و في أثناء ولاية القائد محمد السلاوي زار هذه النواحي الجبلية و مراسيها السلطان المقدس مولاي الحسن ابن سيدي محمد ابن مولاي عبد الرحمن، و مر على طريق جبلي حتى وصل لشفشاون، ثم منها زار القطب مولانا عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه بجميع محلته، و تصدق على الشرفاء بثياب كثيرة و أموال عظيمة، ثم

---

[1] من مخطوط المجلد العاشر من كتاب «تاريخ تطوان»

[2] الجزء 4 - ص. 275

ورد منه لتطوان، فدخلها يوم الأربعاء فاتح المحرم[1] عام 1307، و بقي بها خمسة عشر يوماً، ثم خرج منها يوم الخميس 16 من المحرم[2] المذكور، و مر على طنجة ثم على أصيلا و العرائش و القصر، ثم وصل لفاس رحمه الله و رضي عنه، و وقع الاحتفال بقدومه في جميع القبائل و المدن و خصوصاً في تطوان، فقد سبقه في رمضان عام 1306 جميع عمال قبائل الشاوية بجيوشهم و خيولهم، و نزلوا في البسيط النازل من سيدي طلحة، و صاروا يتسابقون بخيولهم كل عشية على هيئة لم يتقدم لأهل تطوان مشاهدتها من حسن الخيل و جمال السروج و حسن البزة و الثياب و رونق العدة و السلاح و غير ذلك، و تبعهم عمال الغرب و العرائش و أصيلا و غيرهم بشارتهم أيضاً، و كان معه من العسكر السعيد ما يقرب من عشرة ءالاف، مع ما يقرب من ذلك من الجيش و الحناطر و غيرهم. و لما كانت ليلة وصوله لوطا الزينات الحزمرية، سبقته المحلة و نزلت بنواحي المرة، و بات أهل تطوان أيقاظاً يلعبون البارود فرحاً بقدوم الأمير، و في الثلث الأخير من الليل خرجوا جميعاً على طبقاتهم من الشرفاء و العلماء و الأعيان و الطوائف كلها بأعلامها و أذكارها و طبولها، و الشبان حاملين السلاح تحت رئاسة القائد و القاضي، و صلوا الصبح خارج البلد، و اصطف الجميع من وادي شمسة إلى باب التوت، و لم يبق بالبلد إلا النساء و الصبيان، و كان العلماء و الشرفاء راكبين على بغال مسرجة، و كنت فيما بينهم راكباً بغلاً ببردعة، فلما أسفر الصبح، أسفر عن طلعة الأمير، و خلفه وزراؤه و أعلامه، و جيوشه و طبوله، فلما تقابل مع أهل البلد نزل القاضي عزيمان عن بغلته، و تقدم للسلام عليه بالنيابة عن الجميع، فحظي بتقبيل راحته الكريمة و التفاته العالي و ابتسامه الرفيع، و بلغه ترحيب عمالة تطوان به، و امتنانهم بنعمة تشريفهم بطلعته البهية، فشكره و شكرهم على ذلك. و لاحت على

---

[1] سيأتي لنا أن دخول السلطان لتطوان كان في ثامن الشهر لا في أوله

[2] سيأتي لنا أن الصواب أن خروجه كان بعد التاريخ المذكور

طلعته الأريحية الهاشمية ثم أوقف موكبه و أمر بإركاب القاضي عزيمان على بغلته و تقديمه بين يديه هو و من معه. و بمجرد ما ولى القاضي و الأعيان وجههم شطر المدينة، صدحت الموسيقى السعيدة بصنعة :

الوصل يا ما أحلاه، و الهجر مر.

ثم تقاصفت رعود المدافع من كل برج فرحاً بأمير المؤمنين، و أطلقت المكاحل عمارتها من كل جانب على النظام المعروف عند المغاربة، يحضرون من مبدإ مرور السلطان إلى نحو ألف متر، و هكذا استمر الحال حتى دخل السلطان مدينة تطوان، و نزل بالدار العالية، و نزل الحاجب السيد أحمد بن موسى بدار القائد محمد محمد أشعاش، و الوزير الصنهاجي بدار ... و وزير المالية السيد محمد التازي الرباطي بروض الحاج محمد راغون، و وزير العدلية السيد علي المسفيوي بدار الحاج أحمد الرزيني، و وزير الحرب السيد محمد الجامعي بدار ... و قائد المشور ادريس ابن العلام البخاري بدار الودراسي التي في ملك الشريف سيدي محمد ابن عجيبة الآن بزنقة القائد أحمد، و أمين الصائر السيد الطاهر التازي بدار الصباغ بالزنقة المذكورة. و هكذا تفرق كبراء الدولة على الدور اللائقة بهم. أما القواد و بقية الجيش و العساكر فنزلوا في سهل سانية الرمل إلى عين ملون محيطين بالأفراك السعيد، ثم انهالت موائد الأطعمة الفاخرة و الحلاوي على السلطان و الكبراء من أغنياء البلد مدة مقام السلطان رحمه الله هنا صباحاً و زوالاً و مساءً، كما أطعم عموم أهل البلد عموم الجيش بالأطعمة العادية من كسكوس و غيره ثلاثة أيام، و مضت الأيام الخمسة عشر التي أقامها السلطان بين أظهرنا مواسم و أفراحاً ما بين الموسيقى السلطانية التي كانت تشنف الأسماع صباحاً و مساءً بأنغامها العديمة النظير في ساحة الفدان عند باب دار المخزن، و ما بين زيارة السلطان لأولياء المدينة داخلاً و خارجاً و ذبح الثيران بضرائحهم و هو في موكبه السعيد يقف للكبير و الصغير، و يقرأ الفاتحة لكل من طلبها منه، و يدعو بالخير لكل

متعرض، و يمطر الصدقات و العطايا لكل واحد، و ما بين زيارة الأبراج التي ختمها بزيارة برج مرتيل و رمى فيه الأعراض بكور المدافع. و في غد زيارته له ودع تطوان بمثل ما حياها به من البشاشة و الدعاء الصالح، بعد ما حظي بالمثول بين يديه جميع الأكابر و الأعيان من الشرفاء و العلماء و الأغنياء و الفضلاء، و أنعم على مدينة تطوان بقدر عظيم من المال تبنى به قنطرة على وادي المحنش، فبنيت و مر الناس على ظهرها أول عام 1309. ثم هدمها الوادي و بقيت أنقاضها به إلى الآن».

و قد تعرض ابن زيدان لهذه الرحلة أيضاً في كتابه «الإتحاف»[1] و ذكر أن السلطان المذكور، خرج من فاس يوم الاثنين 17 شوال 1306، و مر على قبائل الحياينة و رغيوة و صنهاجة و متيوة و بني زروال و بني مسارة «و هناك أقام سنة عيد الأضحى» ثم نهض لقبيلة بني أحمد فغزاوة فالأخماس فباب تازا فمدينة شفشاون فبني حسان، «ثم زار تربة الولي الصالح أبي محمد عبد السلام بن مشيش، فكسى و وصل و واسى ثم سار على بني حزمار إلى أن دخل مدينة تطاون يوم الأربعاء ثامن المحرم فاتح سنة سبع و ثلاثمائة و ألف، و أقام بها نحو الخمسة عشر يوماً، قابل فيها وجهاء وجوهها، و تفقد أحوالها و زار صلحاءها و أنعم على أهلها بعشرة ءالاف ريال لبناء قنطرة واديهم، و بكل أسى و أسف لم يقع اعتناء بإتقان بنائها، فاضمحلت في أقرب وقت و ذهبت العدة التي صيرت عليها أدراج الرياح، كما أنه أنعم على جنده و عساكره بالكسوة. ثم بارح تطاوين و وجهته طنجة، فدخلها يوم الأحد سادس و عشري محرم المذكور و أقام بها تسعة عشر أو عشرين يوماً، و كان يوم دخوله إليها يوماً مشهوداً، و من أعظم المواسم و الأعياد معدوداً، و استقبله سكانها على اختلاف طبقاتهم بغاية الفرح و الإجلال و الإكبار، فتفقد أبراجها و صقائلها و أتت لتحيته فيها قطع من الأسطول الإنجليزي المرابط بجبل طارق، و لما قضى وطره منها نهض

---

[1] الإتحاف، ج 2 - ص 262

متوجهاً على الغربية فثغر أصيلا، و كان حلوله به يوم السبت السادس عشر من صفر العام، و أقام بها يوماً طاف فيه على الصقائل و الأبراج، ثم سار على طريق الساحل و مر بقبيلة الخلط، و بعد صلاة العصر عبر وادي لكس من مشرع النجمة، و ذلك يوم الثلاثاء التاسع عشر من صفر المذكور، و بمجرد عبوره مع بعض الخاصة من حاشيته امتلأ الوادي و تعذر على المحلة عبوره، فبات المترجم بعدوة و بقيت المحلة بالعدوة الأخرى.

و من صبيحة الغد عبر باقي المحلة و لحق بالمترجم، و توجه لمدينة القصر الكبير بقصد زيارتها، ثم رجع من يومه للمحلة، ثم توجه لثغر العرائش، و دخله دخول عز و إجلال يوم الخميس الحادي و العشرين من صفر المذكور، فتفقد الأحوال و الصقائل و الأبراج ثم بارحها يوم الثلاثاء سادس و عشري الشهر المذكور، و لم يزل يوالي السير إلى أن حل بالعاصمة المكناسية يوم الأحد فاتح ربيع النبوي من العام. فكانت مدة هذه الرحلة مائة و سبعاً و ثلاثين يوماً، منها أربعون يوماً ظعناً قطعت في مائة و ثلاثين ساعة و خمس و ثلاثين دقيقة، و إقامة، تسع و ثلاثون يوماً».

و قد عثرت في ديوان «الروض الفائح بأزهار النسيم و المدائح» للأديب الحاج ادريس السناني الفاسي، على قصيدة نظمها الأديب المذكور بمناسبة هذه الزيارة الملكية، و مطلعها :

يا حسن صنع زماننا فلأجله ... جاء السرور بخيله و برجله

و تبسمت فرحاً مباسمه لنا ... فحكت ثغور الزهر حالة وبله

إلى أن يصف زيارة السلطان لضريح الشيخ مولانا عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه، ثم وصوله لتطوان بقوله :

و ازداد مولانا المؤيد هيبة ... وافى حقوقاً للزيارة و انثنى

عبد السلام فنال منه عطفة ... لزيارة الغوث المغيث و نسله

كانت هي المفتاح ثم لقفلـــه فغدت كمن أهدى لبحر جوهـراً
ريان من نهل القبول و علـــه شوقاً و تعظيماً لحرمة آلـــه
و أتى إلى تطوان فابتهجت لـــه عيداً كبيراً جر فضلة ذيلـــه
قد كان يوم حلوله بفنائهـــا و الأرض قد شرفت بموطئ نعلـه
فرح الجميع بعزه و مقامـــه من عظم موكبه السعيد و شكلـه
و الروم رامت حدها و تقهقـرت تبغيه من حسن الوثوق بحبلـــه
خضعت و أهدت من نفائسها لما و أتى النهار بشمعة من خبله الخ.

هذا و إن زيارة سلطانية كهذه لتطوان، ليست في التاريخ من الأمور العاديـة التـي يتكرر وقوعها، بل هي في نظر جل الناس من الحوادث المهمة التاريخية، حتى إن العوام و النساء صاروا يؤرخون بسنتها، و قد كنا كثيراً ما نسمع بعض النـاس يؤرخـون بعـض حوادثهم بالسنة المذكورة أو بالسنوات القريبة منها. و قد بقي الناس في تطوان سـنوات عديدة يتحدثون عن تلك الزيارة أحاديث طريفـة و لذيـذة تمـتزج فيهـا الوقـائع بالخيـال و الحقائق بالعواطف، و إنه رغماً عن مرور نحو ستين سنة على تلك الزيـارة فإنهـا إلـى الآن لم تتكرر، إذ لم تحظ تطوان بزيارة أي سلطان مغربي منذ زيارة مولاي الحسن لهـا عام 1307 إلى تاريخنا هذا (1368)، و إنه ليس من الغريب أن يظـل النـاس يتنـاقلون أحاديث طريفة عن زيارة كهذه تصحبها مظـاهر و منـاظر لـم يتعـود النـاس رؤيتهـا فـي تطوان و نواحيها، و حقيقة أن مشـاهدة مئـات بـل ءالاف مـن الخيـل المسـومة، ذوات السروج المذهبـة أو المفضضـة، يركبهـا رجـال مختـارون مـن أبطـال القبـائل الوطنيـة، يلبسون أفخر الملابس العربية، و يتباهون على ظهور تلك الصافنات الجياد، تباهيـاً كلـه نبل و شهامة، و يتفننون في ضروب الفروسية و مظـاهر الرجولـة، تفننـا تحوطـه عظمـة و جلالة، لمما يملأ الصدور ابتهاجاً و اعـتزازاً، و القلـوب قـوة و حمـاسـاً. و إن الذيـن تعودوا سماع أخبار العصيان و الثورات على السلطان، و الحركات التأديبيـة التـي تقـوم

بها المحلات المخزنية، و ما يقع في ذلك من المصائب و الويلات، ليحق لهم أن يحمدوا الله و يبتهجوا بكون هذه الزيارة السلطانية كانت زيارة حبية سلمية أظهر الناس فيها من دلائل الطاعة و الولاء و الإخلاص، ما قرت به أعين السلطان و حاشيته.

و لعل من الطريف المستحسن، أن أتوسع قليلاً في أخبار هذه الزيارة الفريدة، و لكن أين هم الأشخاص الذين يحدثونك اليوم عن حوادث مر عليها ما يزيد على ستين سنة دون أن يخلطوا تخليطاً قد تضيع معه الحقائق، أو على الأقل تختلط بغيرها اختلاطاً يعسر التفريق معه بين الغث و السمين، و الصحيح و السقيم. و لكن مهلاً، فإن من حسن حظ التاريخ - و إن لم يسمح بعض أصحابنا فعلى الأقل نقول، من حسن حظ التاريخ المحلي لتطوان - أن الحاج عبد الكريم بريشة - و هو الأمين السفير الشهير- كان في تاريخ تلك الزيارة غائباً عن بلده تطوان، حيث كان في معرض باريس يمثل حكومة جلالة الملك، فكان أقاربه و أصحابه و خدامه يكتبون إليه بتفاصيل دقيقة عن حركات السلطان و سكناته بتطوان أثناء تلك الزيارة، و من حسن ذلك الحظ أيضاً أن تلك الرسائل لم تصر كالكثير من مثيلاتها طعمة للنيران، بل بقيت في صندوق يحجبه عن الأنظار غبار و عنكبوت - و كم للعنكبوت من الفضائل و المزايا في هذا الباب - و أخيراً يتقدم صديقي و رفيقي الحاج مَحمد بنونة، فيبحث في مختلف الزوايا، و كم في الزوايا من خبايا، فيعثر على الصندوق المنسي في دار جده المذكور، و يكتشف تلك الرسائل مع رسائل أخرى تعد بالمئات، و يتحفني بالاطلاع عليها، و فيها كثير من الدرر و النفائس التاريخية، فأجد في ذلك كله معيناً فياضاً من الحوادث و الأنباء. و إني استناداً على بعض تلك الرسائل و على ما سمعته من ذكريات بعض الشيوخ الذين عاشوا في ذلك العهد ألخص ما يأتي :

قبل الرحلة

رأيت في كلام أستاذنا الرهوني أن عدداً من رؤساء القبائل وفدوا على تطوان بخيولهم و جيوشهم قبل موعد الزيارة السلطانية بنحو ثلاثة أشهر، و أنهم كانوا أثناء إقامتهم بأحواز تطوان يتسابقون على ظهور خيلهم، و كان عددهم كثيراً، فكان أهل تطوان يشاهدون مناظر ربما كانت أبصارهم لم تقع على مثلها من قبل. و كانت راية الاستقلال الوطني ما زالت ترفرف فوق الرؤوس، و كانت الفروسية المغربية ما برحت ترفل في حلل المهابة و الجلال، و بدون شك كان الناس ينظرون إلى تلك الحركات و المسابقات بعين الإجلال و الإكبار، و صاروا يشعرون بعظمة المغرب، و في عظمة المغرب عظمة سلطانه و دولته، و قد كان - و ما زال - لمظاهر الخيل و الفروسية التي تمتاز بها القبائل العربية المغربية، تأثير سحري يأخذ بمجامع القلوب، و كان كل ذلك تمهيداً للزيارة السلطانية التاريخية.

ابتداء الرحلة

و وصل موعد تحرك ركاب السلطان من عاصمة فاس، فغادرها في شهر شوال، و جاب قبائل شمال المغرب، و هي قبائل قلما وطئتها أقدام السلاطين الشرعيين، و كان السلطان يقابل من كل قبيلة مر بها أو اقترب منها، بكامل الطاعة و مظاهر الولاء و الاحترام. و في الرسالة السلطانية[1] أن أهالي القبائل كانوا يؤدون الواجبات المفروضة عليهم، و تلك سنة مخزنية قديمة لم يكن محيد عنها لغاية ذلك العهد.

و وصل السلطان مدينة شفشاون فزارها، و في رسالة للسيد أحمد ابن الرايس أنه صلى الجمعة بها. و الناس يذكرون أنه زار فيها الشيخ الصالح سيدي علي شقور، و تحدث معه و تبرك به.

---

[1] سيأتي نشرها.

ثم قصد ضريح شيخ الجبل و أستاذ الشيوخ و جد الأشراف الشيخ مولانا عبد السلام بن مشيش، و كانت زيارته له يوم الجمعة أيضاً، و لم يأنف السلطان من أن يحكي عن نفسه في رسالته الرسمية أنه تضرع في حوشه الحفيل، و أنه طلب فيه من الله تعالى إقامة أود الإسلام و المسلمين و صيانة ثغورهم ...

و المؤرخ ابن زيدان[1] يذكر لنا أن السلطان لما زار التربة المشيشية، كسى و وصل و واسى، و الفقيه محمد الصفار يشرح ذلك في رسالته لصهره بريشة، فيذكر أن السلطان وضع في ضريح الشيخ عبد السلام ألف ريال و مائتي طرف من الكتان، و قدم ذبائح، و زوره الشرفاء، و هو راجل، جميع آثار جدهم الشيخ العظيم.

و اقترب الموكب السلطاني من تطوان فخرج واليها القائد محمد بن أحمد الخضر السلاوي و تشرف بمقابلة السلطان ففرح به.

و وفد سفير إيطاليا بالمغرب على تطوان قبل وصول السلطان إليها بنحو أسبوع. و أخيراً تقرر أن دخول السلطان تطوان سيكون يوم الأربعاء ثامن محرم الحرام سنة 1307.

و في رسالة من الحاج محمد (بالفتح) اللبادي لصهره بريشة أنه في يوم الثلاثاء سابع الشهر غادر تطوان هو و أخوه عبد الرحمن اللبادي و الحاج محمد بريشة و محمد أشعاش، و قصدوا المحل الذي كان به السلطان فقابلوا أولاً الفقيه سيدي أحمد - يعني الحاجب أحمد بن موسى، ابّا أحمد - ففرح بهم و عرف سيدنا بوصولهم فتفضل باستقبالهم و دعا لهم بخير، و زاد السيد أحمد ابن الرايس أنه أمر أن يكون نزولهم عند الحاجب المذكور، و أنهم باتوا ليلتهم بالآلة و الطرب.

---

[1] الجزء 2 - ص 262

و قضى أهالي تطوان الليلة التي سيدخل السلطان المدينة في صبيحتها أيقاظاً، فرحاً بزيارة السلطان و استعداداً للقاه. و قد رأيت وصف ذلك في كلام أستاذنا الرهوني.

دخول السلطان لتطوان

و افتر ثغر صباح ثامن المحرم، فخرجت تطوان بأسرها لاستقبال السلطان المحبوب، و في مقدمة المستقبلين قائد المدينة السيد محمد السلاوي، و قاضيها السيد محمد عزيمان، و الشرفاء و العلماء و الأعيان و مختلف الطوائف و سائر الطبقات حتى اليهود، و ماج الناس بعضهم في بعض، ثم نظمت المواكب و رتبت الصفوف و قصد الجميع طريق السلطان، و قد تواردت الوفود من القبائل المحيطة بتطوان، و دقت الطبول، و ارتفعت الأصوات بالأذكار و الدعوات، و علت البنادق و المكاحل فوق الكواهل، و أصلتت بقايا سيوف غرناطة، و لكن للترحيب و التكريم، و التبجيل و التعظيم، بأمير المؤمنين و بضعة سيد المرسلين. و قرب واد السوير التقت المجامع، فتقدم شيخ البلد و قاضيها الفقيه عزيمان، و قد تجاوز الثمانين من عمره، و نزل عن بغلته، فأشار إليه السلطان بالتقدم، و أستاذنا الرهوني يقول، إنه حظي بتقبيل راحته الكريمة و التفاته العالي و ابتسامه الرفيع، و الفقيه الصفار يذكر أن السلطان صافح القاضي بيد و وضع اليد الأخرى فوق رأس الفقيه و جعل يدعو. ثم أمر السلطان بإركاب الفقيه القاضي على بغلته و تقديمه مع من معه بين يديه، ثم ولى الجميع وجهه شطر تطوان و قد صدحت الموسيقى السلطانية كما قال أستاذنا الرهوني بصنعة «الوصل يا ما أحلاه ...» ثم تقاصفت رعود المدافع من كل برج فرحاً بأمير المؤمنين، و تكهرب الجو، و غمرت الناس من القرح موجات، فارتفعت الهتافات بالصلاة على رسول الله، و بنصر السلطان و علم النبي و رايات الإسلام.

و قد استمر الحال كذلك حتى دخل السلطان مدينة تطوان و نزل بالدار العالية.

و السيد أحمد ابن الرايس يذكر أن تلك المدافع قد استمرت على إرسال قذائفها ما يزيد على الساعتين ابتهاجاً بمقدم السلطان.

و كان الناس يهتمون بما عسى أن يحس به السلطان من شعور عند مقابلته لأهل تطوان، و عند دخوله للمدينة، و هذا أستاذنا الرهوني لم يكتم ابتهاجه من أن السلطان قد لاحت على طلعته الأريحية الهاشمية. و الفقيه الصفار يذكر أن أثر الفرح و السرور كان بادياً على وجه سيدنا، و يحمد الله على ذلك.

و لما كان السلطان قرب عقبة المرة، تقدم إليه سيدي محمد بن مخوت فأراد المخازنية إرجاعه فأشار إليهم السلطان بالابتعاد عنه، و لما وصل إليه وقف له و قال له من أنت؟ فقال أنا شريف من أصحاب سيدي عبد السلام بن ريسون، فقال و ما حاجتك؟ قال دعوة صالحة، فأجاب رغبته ثم استأنف المسير.

و لما صعد السلطان العقبة تعرض له سفير إيطاليا فوقف له و بقي يتكلم معه نحو أربع دقائق، و الترجمان ينقل لكل منهما ما يقوله الآخر.

و كان دخول السلطان المدينة حوالي الساعة الثامنة صباحاً (من يوم الأربعاء ثامن محرم الحرام سنة سبع و ثلاثمائة و ألف)[1]

و كان نزول السلطان بالدار المخزنية الكبرى في المشور السعيد. و خصصت لكل واحد من كبار الحاشية دار مناسبة له، و ذلك حسبما في رسالة الفقيه الصفار كما يأتي :

أحمد بن موسى «الحاجب» بدار أشعاش.

الصنهاجي «الوزير»، دار الحاج أحمد الرزيني.

---

[1] الذي عند أستاذنا الرهوني أن دخول السلطان لتطوان كان يوم الأربعاء فاتح الشهر، و الذي رأيته في رسائل عديدة، و تحققته حتى لم يبق فيه أدنى شك، هو أن ذلك كان في ثامن الشهر، و هذا الذي عند الناصري في الاستقصا و ابن زيدان في الإتحاف.

المسفيوي «الوزير»، رياض الشرتي.

التازي «أمين الأمناء»، روض راغون.

الجامعي، محمد الصغير، غرسة الرزيني.

الجامعي، الحاج المعطي، دار الوزير الصفار.

و تفرق باقي الأعيان و الشرفاء و الكتاب على دور المدينة.

أما المحلة السلطانية و وفود القبائل، فنزل بعضها خارج بـاب التـوت، و البعـض الآخر بسانية الرمل من حدود العراصي إلى مجاز الشطبة.

و حل يوم الجمعة – عاشر المحرم – فقـرر السـلطان أن يـؤدي فريضـة الجمعـة بالجامع الأعظم، فاصطف العسكر مـن المشور إلـى بـاب المسـجد، و لا تسـل كيـف قضى الموكب السلطاني تلك المسافة، و لا عمـا غمـر النـاس مـن السـرور و الابتهـاج برؤية طلعة السلطان و موكبـه العظيـم، فهنـاك طبقـة تضحـك و تصيـح بنصـر السـلطان و عزه، و أخرى تذرف دموع الفرح من شدة التأثر، و أخرى مـأخوذة بسـحر المظـاهر و جلال الموقف، و أخرى تتجرأ و تتقدم من سلطانها الذي تحبه و تطيعـه و هـو منهـا و إليها، و هو بضعة نبيها و رسولها، و طاعته طاعة اللـه و رضـاه رضـا اللـه، و دعوتـه مستجابة عند الله، فتطلب منه قراءة الفاتحة و دعوة صالحة، و السـلطان يـرى مـا يـرى من اندفاعات، و ابتسامات و دمعات، فيشعر بالحب و العطف، و الـولاء و الإخـلاص، فيتأثر و يبتسم و يقف و يجيب رغبات الطالبين.

و في يوم السـبت – الحـادي عشـر مـن المحـرم – اصطـف العسـكر السـلطاني صباحاً بساحة الفدان و حضر سفير إيطاليا فخـرج السـلطان إلـى السـاحة المذكـورة – و هي أكبر ساحة داخل المدينة – فاستقبل السفير المذكور اسـتقبالاً رسـمياً فـي وسـط الساحة، و صدحت الموسيقى و انطلقت أصوات المدافع من الأبراج. و قـد اسـتغرقت حفلة هذا الاستقبال نحو ثلث ساعة.

أما يوم الأحد، الثاني عشر من الشهر، فقد خصصه السلطان لزيارة أولياء الله بتطوان و ضواحيها على العادة المخزنية منذ القديم. ففي الساعة السابعة صباحاً تحرك الموكب السلطاني فزار السلطان مع حاشيته ضريح أقرب ولي من دار المخزن و هو ضريح سيدي عبد الله الحاج البقال، ثم انعطف نحو المصلى القديمة، فزار ضريح سيدي مصباح، ثم خرج على باب الرموز فزار ضريح سيدي عبد القادر التبين و ضريح سيدي أبي عبد الله الفخار. و دخل على باب العقلة فزار ضريح سيدي السعيدي، ثم قصد الزاوية الريسونية فزار بها سيدي علي بن ريسون و ولده سيدي عبد السلام، و قد أطال المكث بهذه الزاوية المباركة نحو نصف ساعة و جلس يتحدث مع إمامها الفقيه السيد محمد اللبادي نحو ربع ساعة، ثم قصد ضريح سيدي المنظري ثم زار ضريح سيدي الحاج علي بركة ثم ضريح سيدي علي بن مسعود ثم ضريح سيدي أحمد ناجي ... و قد ذبح على كل ضريح من تلك الضرائح ثوراً تصدق بلحمه على الضعفاء و المساكين، أما الزاوية الريسونية فقد ذبح بها ثورين اثنين. و الأولياء الذين لم يزر السلطان ضرائحهم لبعدها، قد أرسل الذبائح إليها، فنال الفقراء منها ما ملأ بطونهم مرقاً و لحماً، و أفئدتهم فرحاً و سروراً، و ألسنتهم شكراً و ثناءً ...

و في يوم الثلاثاء، الرابع عشر من المحرم، توجه السلطان لزيارة الأبراج و الاسقالات، فزار اسقالة باب العقلة و اسقالة باب المقابر، و طلع للقصبة الكبرى المشرفة على المدينة كلها، فزارها كما زار بقية أبراج المدينة كبيرها و صغيرها، عامرها و مهملها.

و أثناء ذلك كان أنجاله يزورون ضرائح الأولياء و يذبحون عندها الثيران للشرفاء و الفقهاء و أرباب الطرق و الفقراء، و كان بعض أولئك الأنجال قد ورد من العرائش حيث كانوا يقرءون، و قد استقبلتهم تطوان بإطلاق المدافع و غير ذلك من مظاهر الابتهاج و الترحيب.

مقابلات السلطان

و السلاطين في مثل هذه الزيارة، يخصصون أوقاتاً لاستقبال وجوه الناس بصفة خاصة، و قد وفد على تطوان سفيرا إيطاليا و بلجيكا، فاستقبل السلطان كل واحد منهما استقبالاً رسمياً بساحة الفدان، و كانت هذه المقابلة هي الثانية للسفير الإيطالي، لأنه سبق له أنه تعرض للسلطان يوم وصوله لتطوان. و قد ذكر م. لامارتينير (نائب فرنسا بطنجة في ذلك العهد)[1] أن السفيرين المذكورين قدما للسلطان أوراق اعتمادهما في هذين الاستقبالين. فلعلهما كانا حديثي عهد بالقدوم على المغرب، و قد انتهزا فرصة زيارة السلطان لتطوان فقدما إليه أوراق اعتمادهما، حتى إذا ما قابلاه في طنجة مع بقية السفراء الأجانب، كانا معروفين مقبولين كغيرهما من سفراء الدول. و لعل هذا هو السر في أن بقية سفراء الدول لم يفدوا على السلطان و لم يستقبلوه بتطوان.

و استقبل السلطان في روض دار المخزن بصفة خاصة :

الفقيه سيدي الحاج أحمد السلاوي، ثم الحاج مَحمد اللبادي، ثم أخاه الفقيه السيد محمد اللبادي، ثم الأمين الحاج محمد بريشة، ثم أولاد أشعاش مجتمعين.

و تلاقى به أيضاً الفقيه القاضي السيد محمد بن علي عزيمان و الفقيه السيد محمد النجار، و الوجهاء السيد الحاج محمد ابن جلون و السيد عبد القادر الرزيني، و السيد الحاج محمد هرون، و الحاج أحمد الخطيب، و السيد عبد الكريم الخطيب و ولده عبد السلام، و الشرفاء أولاد بن ريسون و أولاد البقال، أما وفد أعيان تطوان فقد استقبله بالمشور السعيد.

---

[1] في بحث له نشرته مجلة «العالمين» الفرنسية إثر وفاة السلطان مولاي الحسن سنة 1894. في صفحة 420.

إكرامات

امتلك السلطان مولاي الحسن ببشاشته و تواضعه و حسن أخلاقه و معاملته، قلوب سائر الطبقات، فصار الناس يشعرون نحوه بعواطف يهون عليهم معها أن يبذلوا أنفسهم و كل ما يملكون في سبيل رضاه. و قد تسابق الناس أغنياؤهم و فقراؤهم لتقديم أنواع الأطعمة و مختلف الهدايا إلى السلطان فمن دونه، و إليك بعض ما وصلنا من ذلك :

فهذا الحاج مَحمد اللبادي يخبر الحاج عبد الكريم بريشة بأن أخته السيدة عائشة لبادية، زوجة بريشة المذكور، كانت تقدم لدار ألسلطان يومياً عشر موائد في وقت الفطور، و مثلها في وقت الغداء ...

و كانت تقدم لدار الحاجب أربع موائد، و مثلها للوزير الصنهاجي، و كذلك لغريط، و للمسفيوي، و للجامعي، و لقائد المشور ... الخ.

و يحكي اللبادي عن نفسه أنه كان لغاية اليوم الخامس عشر من الشهر، قد قدم مائة و عشرين مائدة من مختلف أنواع المآكل الفاخرة، مع خمسة و سبعين خابية من الحلويات، و مائة و ستين قالباً من السكار.

و ذكر الفقيه الصفار أن الأمين التازي وردت عليه في وقت واحد من أحد الأيام سبعون مائدة مختلفة الأنواع و الأشكال. و ليقس ما لم يقل على اصطلاح القرويين.

و يقول الحاج مَحمد اللبادي - و هو الجوال الخبير - إن ما قامت به تطوان في هذا الباب، لم يقع في بلد آخر قط.

و لم تكن الهمم كلها متوجهة لناحية المآكل و المشارب، بل كانت هناك ناحية خرى أهم و ألطف و أذكى، و هي ناحية الروائح الذكية، ناحية العطور و الزهور، مختلف أنواع البخور، و هناك ما أحله الله من لذيذ المشروبات. و قد كان للمسك

و العنبر المقام الأول في كثير من المأكولات و المشروبات و غير ذلك مما يرغم الأنوف على حمد الله و الصلاة على أطيب خلق الله.

و كان من اعتناء الحاجب السيد أحمد بن موسى و حزمه، أنه يكتب إلى كل من يرسل شيئاً من الهدايا إلى السلطان أو إليه، شاكراً لذلك المهدي داعياً له. و دونك نموذجين من ذلك. فهذه رسالة منه لأهل الأمين الحاج عبد الكريم بريشة، شاكراً لهم على ما قدموا من موائد الطعام هدية للسلطان، و نصها :

«الحمد لله

أحبتنا الأرضين أهل دار المحب الحاج عبد الكريم بريشة، أمنكم الله و سلام عليكم و رحمة الله عن خير سيدنا أيده الله، و بعد وصلت بطاقتكم مع ما وجهتم للجناب المولوي رعاه الله من موائد (20) الطعام و الحلاوي، طالبين تحميد مولانا بالسلامة. فقد حل ما وجهتم من مولانا محل القبول، و دعا لكم نصره الله بقوله بارك الله لكم، و على المحبة و السلام في 9 محرم فاتح 1307.

أحمد بن موسى بن أحمد لطف الله به».

و هذه رسالة أخرى منه إليهم أيضاً في الشكر على ما قدموه إليه من ذلك :

«الحمد لله

أحبتنا الأرضين دار المحب الحاج عبد الكريم بريشة، أمنكم الله و سلام عليكم و رحمة الله عن خير سيدنا أيده الله، و بعد وصلت بطاقتكم مهنئين لنا بمقدم سلامة مولانا المؤيد بالله و سلامتنا، مع ما وجهتم لنا من موائد الطعام، فقد وصلت و حلت منا محل القبول، كثر الله خيركم و أجزل بركم و أزاح ضيركم بمنه ءامين، و على المحبة و السلام في 10 محرم فاتح 1307.

أحمد بن موسى بن أحمد لطف الله به».

الهبات و الهدايا

ينتهز الأعيان و أصحاب الوظائف المهمة و «المنتظرون لها» مثل هـذه الفرصـة، فيتبارون في تقديم الهدايا و التحف إلى السلطان و حاشيته. و قد استطعنا أن نعرف مـن الرسائل المرسلة إلى الحاج عبد الكريم بريشة أسماء الأشخاص الذيـن قدمـوا للسـلطان هدايا خصوصية، و إن كنا لم نعرف من تلك الهدايا إلا القليل. كما عرفنا بعض الهبات السلطانية لمختلف الأشخاص.

فقائد المدينة السيد محمد السلاوي قدم مكحلتين مناسبتين من مصنوعات تطوان الممتازة مع ثلاثة آلاف ريال. و ذكر الفقيه الصفار أن القائد المذكور كان على خاطره غاية (يعني مسروراً).

و قدم أهالي تطوان على العموم هدايا مناسبة باسم المدينة، كمـا قـدم لـه اليهـود هدية خاصة أخرى، و قدم له بعض الأعيان هدايا خصوصية، منهـا هديـة الأميـن الحـاج مَحمد اللبادي، و هي صندوق به أربعة قفاطين من القمارات، مع أربـع بداعـي و أربعـة دفائن، و صندوقان مملوءان بالحلوى، مع صندوق ردايم (قوارير) من ماء الياسمين.

و أهدى الحاج محمـد بريشـة حجـرة كـبرى مـن الأحجـار الكريمـة، مـع عـدة مطارب من ماء الياسمين.

و أهدى الفقيه السلاوي كتاباً، و كذلك الفقيه اللبادي، و أهدى القاضي عزيمان نسخة من المستظرف.

و أهدى عبد الخالق السكيرج تفصيلتين من فاخر الثيـاب، و جميـع الذيـن قـابلوا السلطان مقابلة خاصة قدموا له هدية مناسبة.

أما السلطان فقد قابل ما قدم له من الهدايـا، و مـا قوبـل بـه مـن البرور، بهبـات و صلات شملت كثيراً من الناس. فسفيرا إيطاليا و بلجيكـا قـد منـح كـل منهمـا هديـة

مناسبة فيها خيل و بغال و سلاح. و حظي قناصل الدول بالتفات السلطان أيضاً، ففاز قنصل الإسبان بفرس ...الخ.

و توصل كل من اللبادي و ابن عبد اللطيف و الخطيب بكسوة.

و باشا المدينة السلاوي، أعطاه السلطان فرساً بسلاحه و كسوة مناسبة.

و أعطى السلطان كسوة خاصة لكل واحد من علماء المدينة و لعدد من الأشراف، و لعدلي الديوانة، و الفقيه الصفار يذكر أن الذين قابلهم السلطان مقابلة خاصة، قد أعطى كل واحد منهم كسوة هي عشر قالات من الملف مع تمام الكسوة. و الحاج مَحمد اللبادي يتوسع و يذكر أن الذي أنعم به السلطان على كل من تلاقى به، هو كسوة كاملة، و هي عشر قالات من الملف و حائك و كتان، و ابن الرايس يزيدنا بياناً فيشرح لنا أن الصلة كانت طرف ملف و بيسة حياتي و بيسة شطروان و كساء.

و كان أولاد أشعاش – و هم ذرية الباشا الخديم المنكوب – قد قدموا للسلطان مطالب فأنعم عليهم بكل ما طلبوا.

و التفت السلطان لناحية أخرى ، فأكرم الطلبة، و كسا المخزنية و البحرية و الطبجية و وصل الجميع.

تعرضات

لما كان السلطان ماراً بين باب العقلة و ضريح سيدي السعيدي في جولة زيارته للأولياء، وقف الأمين الحاج مَحمد اللبادي بباب روضه المتصل بداره، و قد هُيئ التمر و الحليب من داري اللبادي و بريشة، و لما سامت الموكب باب الروض تقدم اللبادي و من كان معه، فوقف السلطان و تناول من التمر و الحليب، و سأل خديمه المطيع اللبادي عن داره و دار رفيقه و جاره الأمين السفير الحاج عبد الكريم بريشة، فأجابه اللبادي بما يناسب، و قبل الأرض بين يديه، ثم بسط السلطان يده للدعاء (عمل فاتحة). و كان خدام الأمينين مجتمعين ما بين مماليك و غيرهم، فتبرع عليهم السلطان بثلاثين

مثقالاً. أما الوزير الصنهاجي فقد هزته الأريحية و جاد عليهم بأربعة و عشرين بليوناً حسبما ذكره الفقيه الصفار في كتابه المؤرخ بالتاسع عشر من المحرم.

هذا نموذج من التعرضات المنظمة الرزينة التي كان السلطان يقابل بها و يعرف منها مبلغ تقدير الناس و حبهم له، و انتهاز الفرص للتحكك به و إظهار شعورهم نحوه.

و هناك نوع آخر من التعرضات الاندفاعية التي يقوم بها أصحابها من غير شعور و لا نظام، بل يكفي الواحد منهم أن يحظى بدعوة الخير من السلطان، خليفة الله و ظله في الأرض، و لعله بذلك يعتقد أنه فاز بجواز لا يقف في وجهه شيء لا في الدنيا و لا في الآخرة. و ربما كان هناك من يعتبر كلامه مع السلطان ذخيرة يظل طول حياته يفخر بها و يتيه على الأقران. و السلطان في كل ذلك صابر لقضاء الله يجيب الرغبات، و يمنح الدعوات، و يوزع الصلات.

و هذا عبد الله بن مفتي يقف بطريق السلطان، و حين يُسأل عن حاجته يطلب ثمن كأس قهوة، فيعطيه السلطان ثمانية مثاقيل. و لله في خلقه شؤون !

استقبال أرملة الشيخ سيدي عبد السلام بن ريسون

و صدر الإذن المولوي لأرملة الشيخ الصالح سيدي عبد السلام بن ريسون، فقصدت دار المخزن مصحوبة بأختها و جماعة من رفيقاتها، و وصلت مقر الحرم السلطاني ليلاً، فاستقبلها أهل السلطان بالتمر و الحليب و الشموع، و باتت معهن ليلتها.

و نهض السلطان مبكراً فصلى الصبح، ثم صحب معه نجله مولاي عبد العزيز، و قصدا معاً غرفة أرملة الشيخ، و دخلا عليها مع رفيقاتها، و سلم عليها السلطان، و قبل رأسها فقبلت هي يده، ثم جلسا و سألها عن أحوال زوجها الشيخ المقدس، و تأسف على عدم إدراكه في الحياة، و طلب منها الدعاء لولده العزيز المولى عبد العزيز. و كان قد أرسل إليها قبل هذا الاجتماع كسوة و ثلاثين ريالاً، و في هذا

الاجتماع قدمت له مصحفاً و ساعة ممتازة من مخلفات زوجها المرحوم. و قد قبل السلطان منها هديتها و أعطاها مائة ريال و كسوة و سوارين من ذهب كانا من جملة ما أهداه إليه يهود تطوان. و أنعم عليها بظهائر الاحترام و التحرير لأصحابها و خدامها، و منح كل واحدة من رفيقاتها هدية خاصة مناسبة. و الحاج مَحمد اللبادي يقدر أن ثمن ذينك السوارين نحو مائتي ريال. و غادرت زوجة السيد دار المخزن بعد أن زارتها ربات خدورها و أغدقن عليها من الهدايا أشكالاً و ألواناً.

و لم ينس السلطان بقية أهل السيد، فقد قضى ما وجد عليهن من الدين، و مبلغه 460 ريالاً، و منحهن من الهدايا و الصلات ما يناسب مقام الجميع.

اشتكوا و اطلبوا

و قيل لأهل تطوان اشتكوا للسلطان بما شعرتم أو تشعرون به أو لحقكم من أضرار، و لكن السلطان مضى عليه بتطوان أسبوعان كاملان دون أن يتقدم إليه أحد بأي نوع من أنواع التشكي أو التظلم. و كان بعضهم ينتظر أن يتشكى الناس مما ألحقه العسكر و الجيش ببساتين تطوان و غروسها، و كانوا قد أتوا على أخضرها و يابسها، و لكن انتظارهم طال، و ارتحل السلطان دون أن يتقدم إليه أي واحد بأية شكوى.

و قيل لأهل تطوان اطلبوا من سيدنا، فإن خيره كثير، و مدده عظيم، فكانت طلبات، و لكنها انحصرت في ثلاث : كان الناس يتعرضون له في الشوارع و يطلبون منه قراءة الفاتحة و الدعاء الصالح لهم و للإسلام و المسلمين، فكان يقف لكل طالب، و يجيب رغبة كل راغب.

و طلب قائد تطوان «السلاوي» و قاضيها «عزيمان» و مفتيها «السلاوي» و الحاج محمد بريشة و الحاج مَحمد اللبادي، أن يتفضل السلطان بترك بعض أبنائه في تطوان للقراءة بها، فأنعم عليهم بما طلبوا، و لم يغادر تطوان حتى كتب لقائد البلد رسالة تاريخية أجاب فيها رغبتهم، و سيأتي لنا بيان ذلك.

و طلب بعضهم أن يأذن السلطان بإصلاح المتهدم من أملاك الأوقاف الإسلامية، و ببناء قنطرة على نهر المحنش، فأمر بذلك حيناً. و استغرب السلطان و استغربت حاشيته هذه النفس الأبية، و العزة الجلية، و بقي ذلك مدة مضرب الأمثال.

إصلاح أملاك الأحباس و بناء قنطرة المحنش

تقع تطوان في سفح جبل درسة الذي يعد من أرض قبيلة الحوز، و يفصلها عن مداشر قبيلة بني حزمر، سهل يشقه نهر يفيض في أيام الشتاء، فيتعذر اجتيازه و تنقطع المواصلات بين المدينة و جل جوارها. و كل منهما لا يمكنه الاستغناء عن الآخر. فلهذا كانت أكبر مبرة تقدم لتطوان و جوارها في ذلك العهد هي بناء قنطرة على النهر الكبير، ليضمن دوام الاتصال بين الطرفين، و هذه هي إحدى الرغبتين اللتين تقدم بهما إلى السلطان بعض الذين يفكرون في المصالح العامة.

و أمر السلطان بتقويم صائر القنطرة، فقدر له ثمانية آلاف ريال، فأمر السلطان بتنفيذ المشروع.

و رأى بعض الغيورين على الشعائر الدينية أن الأحباس - و قد تهدم كثير من أملاكها في الحرب العدوانية الماضية - ليس لديها من المداخيل ما تستطيع أن تؤدي به ما يلزم للمشرفين على بيوت الله و القائمين بشعائر الدين، فطلبوا إصلاح بعض الأملاك المخربة، ليصبح لها مدخول تستعين به تلك الأحباس الضعيفة على صوائرها اللازمة. و صادفت هذه الرغبة الدينية الإنسانية قبولاً من جانب السلطان، فأمر بأن ينفذ لذلك مبلغ من المال. إلا أن هذا المبلغ قد وجدت في تحديده بعض اضطراب، فالفقيه الصفار يذكر أن السلطان نفذ لإصلاح أملاك الأحباس عشرين ألف ريال، و لبناء قنطرة المحنش ثمانية آلاف، و الكل على يد الناظر الحاج محمد بريشة. أما الحاج مَحمد اللبادي، فيذكر أن السلطان نفذ لإصلاح الأحباس عشرة آلاف ريال، و لبناء القنطرة ثمانية آلاف. و ابن الرايس يؤيد هذه الرواية، و يزيد أن ذلك نفذ من مدخول مرسى

العرائش، و أن الواقف على ذلك هو الحاج محمد بريشة. و يعود الحاج مَحمد اللبادي فيكتب في رسالة أخرى أن الحاج محمد بريشة كتب له من طنجة، بأن السلطان نفذ له عشرة آلاف ريال لبناء الحبس، و أربعة آلاف لبناء قنطرة المحنش.

و لعل كل ما كان قد صدر بتطوان لغاية ذلك التاريخ، إنما هو وعد جدي بالمساعدة، و قبل أن ينفذ ذلك بالفعل اختلفت التقديرات، فأخبر كل بما سمع. أما الناصري في الاستقصا، فذكر أن الذي نفذ لبناء القنطرة المذكورة هو عشرة آلاف ريال. و لم أقف على ما يحقق لنا ما تم في الموضوع.

فكرتان لم تنفذا

ذكر الفقيه الصفار أن السلطان أمر بمناسبة زيارته لتطوان، أن يبنى بها برجان أحدهما بجهة القصبة المشرفة على المدينة، و الآخر على شاطئ البحر بناحية الشبار، مقابل برج مارتيل القديم المشهور منذ عهد المولى إسماعيل. و قد صدر الأمر بوضع تصميم ذلك للمهندس البروسي النصراني الذي كان يبني أبراج الرباط، و كان بتطوان في ذلك العهد، مع المهندس المغربي السيد الزبير السكيرج. و فعلاً قصد المهندسان المحلين المذكورين، و اختارا الموقع المناسب للبرجين، و وضعا التصميمات اللازمة لذلك، و لكن الفكرة تنوسيت بعد ذلك، أو أعرض عنها فلم ينفذ منها شيء، و دخل حديثها في خبر كان، أو فيما فُكر أن يكون ...

و مما أثير أيضاً أثناء الزيارة السلطانية، توسيع الزاوية الريسونية، بأن يزاد فيها المارستان المجاور لها، و تحدث الناس بذلك و كتبوا به، و لكن الفكرة لم يخرج منها للوجود شيء في ذلك التاريخ، بل تأخر تنفيذها على أحسن حال إلى عصرنا هذا على يد رجل محسن من أهالي تطوان.

كثرة الخيرات أيام الزيارة

و سكان تطوان في ذلك العهد لم يروا قط في حياتهم مدينتهم عامرة بالناس عمارتها في أيام تلك الزيارة السلطانية، إذ أن عدد الواردين عليها صار موازياً تقريباً لعدد سكانها الأصليين، فلذلك صار بعض الناس يخشون من قلة المواد الغذائية، و لكن الأمر كان بخلاف ذلك، إذ تواردت عليها الخيرات من كل الجهات. و هذا الفقيه الصفار يقول في إحدى رسائله لبريشة : «و الخيرات كثيرة، و الحالة لم تتأثر بكثرة الواردين» ثم يؤكد ذلك في رسالة أخرى بأن اللحم و الخضر و الفواكه و الزرع و غير ذلك من مواد المعيشة، تبقى معروضة للبيع في الأسواق إلى المغرب، فيشتري الناس من ذلك ما يكفيهم و يفضل الخير. و ابن الرايس يقول و يكرر و يؤكد، أن الخير باسط ...

السلطان يشرف على البحر الأبيض المتوسط

كانت عواصم المغرب دائماً، إما في داخلية البلاد، و إما في ناحية المحيط الأطلسي، و الساحل المغربي الواقع على البحر الأبيض المتوسط لم تكن به مدن مهمة من حدود الجزائر إلى شاطئ المحيط. و قبائل الساحل المذكور صغيرة أو فقيرة، أو جبالها شامخة و طرقها صعبة، فلذلك يجد الذين يقرأون تاريخ المغرب، أن البحر الأبيض المتوسط، قلما وصل إليه أو رآه ملك من الملوك المغربيين. و السلطان مولاي الحسن – و هو الملك الجوال – قد انتهز فرصة وجوده بتطوان، و البحر كأنه منها على بضع خطوات، فأمر و أمره المطاع، باتخاذ الإجراءات لزيارة شاطئ مرتيل، و هو ميناء تطوان على البحر الأبيض المتوسط.

و مولاي الحسن يهمه دائماً أن يقف على الشواطئ، و يتفقد بنفسه الأبراج و الحصون، و إن كانت الحاشية تعرف كيف تظهر أن الدنيا دائماً بخير و على أحسن ما يكون، و أن ليس في الإمكان أبدع مما كان.

صغيرة فصارت كبيرة، و كانت مغربية إسلامية فصارت أجنبية و كفى، و لقد اقتطعها الأجانب من بلاد المغرب و ألحقوها بوطنهم في أهلها و دينها و لغتها و عوائدها. و كأني بالسلطان و قد تألم و تحسر، و حول وجهه لجهة اليسار، و لكن ماذا يرى في جهة سبتة؟ يرى أيضاً سهلاً أوسع من سهل اليمين، و يرى جبلاً ينتهي أيضاً إلى مدينة أهم من صاحبتها و أقدم، و أرقى و أعلم، و أغنى و أفخم، و أوسع و أعظم، مدينة هي درة في تاج المغرب بل إفريقيا، و لكن ترامى عليها أيضاً من اغتصبها اغتصاباً، فقوض آثارها، و غير معالمها، و طمس رسومها، و محى علومها، و خشي السلطان على موطئ قدميه، و لم ير قربه إلا برج مرتيل، فأمر بتعزيزه ببرج آخر يوازيه، و لكن ذلك الأمر كان ككثير من الأوامر الإصلاحية التي تذروها الرياح، أو تغطيها الرمال. و من أين تملأ جيوب الجبابرة، و بماذا تبنى صروحهم، و تتم نعمتهم، و تكمل شهواتهم، إذا كانت أموال الدولة لا تصرف إلا في المصالح العامة من الأبراج و الحصون، بدل الدور و القصور، و الفسوق و الفجور، و المخدرات و الخمور، و القناطر و الطرقات، بدل البساتين و الجنات، و الأساطيل و المعسكرات، بدل الإماء و الثريات ...

مغادرة السلطان لمدينة تطوان

في الساعة الثامنة من صباح يوم الخميس، ثالث و عشري محرم الحرام سنة سبع و ثلاثمائة و ألف، غادر السلطان و دائرته مدينة تطوان، و لم يترك بها أحداً لا من عياله و لا من غيرهم. و نزل بوادي بوصفيحة، على بعد نحو عشر كيلومترات من تطوان، و هناك قضى يومه و ليلته. و كان الوجيه الحاج مَحمد اللبادي قد صحب السلطان عند خروجه من تطوان، و بات معه ليلته الأولى في بوصفيحة، و في الصباح ودعه و عاد لتطوان.

أما قائد المدينة محمد السلاوي البخاري، فبقي في ركاب السلطان، و في نفس اليوم غادر تطوان أيضا سفيرا إيطاليا و بلجيكا إلى مقرهما بطنجة.

و استأنف السلطان سيره قاصداً مدينة طنجة، و قبل وصوله إليها أرسل نواب الدول الأجنبية إلى الحاجب السلطاني رسالة يفهم مضمنها من الجواب الذي بعثه إليهم الحاجب المذكور، و هذا نصه بعد الحمدلة :

«الأحباء العقلاء النصحاء، الملحوظين بعين الاعتبار و الاعتناء، نواب الدول المحبين الفخيمة بثغر طنجة، بعد السؤال عنكم و محبة أن تكونوا بخير في سرور و بهجة، فقد وصلنا كتابكم ببلوغ الخبر لكم بتخييم الجناب الشريف بقرب المدينة، و أشرتم بأن ننوب عنكم في الترحيب بشريف سيادته و تهنيتها، و أن نطلب من سيادته تعيين الوقت الذي تتلاقون فيه بجنابه العالي بالله، و أطلعت بكتابكم شريف علمه أيده الله، و نبت عنكم في ذلك، فرحب أيده الله بسيادته عند الله و رجال البلاد، و دعا بأن يكون حلوله بذلك الثغر حلول يمن و سعادة و بركة، و سر نصره الله بتلقيكم، و أمرني أعزه الله أن نجيبكم بذلك، و بأن من أهم الأمور عند سيادته في هذه الوجهة السعيدة، الملاقاة بكم ملاقاة المحبة و المودة في البلاد التي أنتم مستقرون فيه، لأنكم من دول بينها و بين دولته الشريفة ما لا مزيد عليه من المحبة و المودة و الصداقة، و بأنكم مخيرون في الملاقاة بسيادته، فإن أردتموها في أعتابه الشريفة بداخل المدينة فتكون بعد مضي ثلاثة أيام من يوم حلوله بالمدينة، و إن أردتم الملاقاة بخارج المدينة عند حلوله أعزه الله بها صبيحة غد إن شاء الله، فيكون وقوفكم أمام عسكر المخزن لأنه أحسن من الوقوف في محل وقوف العامة، و دمتم كما تحبون، و ختم في 25 من المحرم فاتح عام 1307».

و وصل السلطان مع حاشيته إلى مدينة طنجة، و دخلها يوم الأحد سادس و عشري الشهر المذكور.

و إني أترك لمؤرخي طنجة مهمة تسجيل الزيارة السلطانية لزهرة المغرب ...».